السخاء بالدعاء

السخاء بالدعاء، هو شيمة النبلاء، وفِعلة الفضلاء، وهو أمارة طهارة وزكاء، وسخاوة نفس وصفاء.

ومعنى السخاء في الدعاء أن يكون أخوك المسلم حاضراً معك في خلواتك، فتؤثره على نفسك ببعض دعواتك، وتَهبه حظّاً من تضرعك ومناجاتك، فتصعد باسمه في الخفاء إلى السماء، فيا لله ما أجمل هذا الوفاء، وما أزكى هذا الإخاء!

وقد ورد في هذا فضل عظيم، فقد أخرج مسلم[(١)] من حديث صفوانَ بنِ عبد الله أنه قدم الشام، فأتى أبا الدرداء، وكان صفوان زوج ابنته، فلم يجده، ووجد أم الدرداء، فقالت له: أتريد الحج، فقال: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**» قال: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ.

فدل هذا الحديث على أن دعاء المسلم لأخيه المسلم

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٣).

مستجاب؛ وأن الملائكة تؤمِّن على الدعاء، وتقول: «**ولك بمثل**».

ولذا جاء عن بعض السلف أنه إذا أراد أن يدعو لنفسه، فإنه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب، ويحصل له مثلها[١].

وكلما كان الدعاء للآخرين أعمَّ وأشمل كان أزكى وأفضل، يقول ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: فضل عموم الدعاء على خصوصه كفضل السماء على الأرض، وذكر في ذلك حديثاً مرفوعاً عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ مرَّ به وهو يدعو فقال: «**يا علي، عُمَّ؛ فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض**»[٢])[٣].

وقد اشتهر عن بعض الأكابر اهتمامهم بالدعاء لإخوانهم المؤمنين؛ فمن ذلك ما أخرجه البيهقي[٤] عن الإمام الكبير عبد الله بن المبارك أنه كان إذا خَتم القرآن، أكثرُ دعاءه للمؤمنين والمؤمنات.

فيا لله ما أطيب هذه النفس التي تؤثر الآخرين عليها! إنها لنفس زكية، طاهرة تقية.

(١) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١٧/ ٤٩).
(٢) منقطع أخرجه أبو داود في المراسيل (٨٠).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤).
(٤) شعب الإيمان (٢٠٤٦).

ولما مرض الإمام أحمد مرض موته، دخل عليه الناس فوجاً فوجاً يزورونه، ودخل عليه رجلٌ، فَجعل يدعو له، فجعل الإمام أحمد يقول له: «ولجميع المسلمين»[(١)].

ألا تتعجبون من هذا الإمام!!

في آخر أيامه، وفي شدة مرضه، قد أشفى على الموت، ومع ذلك لم ينس إشراك المسلمين معه بالدعاء؛ وهكذا العظماء، حالهم سواء، في السراء والضراء، لا يعيشون لأنفسهم؛ وهذا من أسباب عظمتهم ورفعتهم وبركتهم.

وإن الدعاء للآخرين ليتأكد لمن فعل لك معروفاً، فقد قال النبي ﷺ قال: **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**[(٢)].

وأعظم الناس معروفاً علينا الرسول ﷺ؛ فلنكثر من الصلاة عليه ﷺ؛ فهذا من حقوقه علينا.

ثم الوالدان؛ فلهما حق على الأبناء بالدعاء[(٣)].

والدعاء لولي أمر المسلمين له أهميته الكبرى، وثمرته العظمى؛ إذ بصلاحه صلاح العباد والبلاد، وقد نصَّت على هذا كتب العقائد[(٤)].

---

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٥٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢).

(٣) سبق بيان الأدلة في ذلك في المقال السابق بعنوان: «بر الوالدين كفارة الكبائر».

(٤) ينظر: شرح السنة للبربهاري (ص١١٤)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص٩٢ ـ ٩٣)، والشريعة للآجري (١/ ٣٧١).

ويتأكد الدعاء لمن علَّمك علماً، وقد كان الإمام أبو حنيفة يقول: «ما صلَّيت صلاة إلا استغفرت لحمَّاد بن أبي سليمان مع والدي»[(١)]، وكان حمادٌ شيخَه.

ودعاء الإمام أحمد لشيخه الإمام الشافعي مشهور معلوم، ومنه قوله: «ما بتُّ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعي، وأستغفر له»[(٢)].

بل الرجل ذو المروءة يدعو لمن أحسن إليه، حتى ولو كان ظاهر حاله أنه غير حقيق بالدعاء، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعو كثيراً للصِّ بسبب كلمة طيبة قالها له، فما هذه الكلمة؟

يحكي الموقف عبد الله ابن الإمام أحمد، فيقول: «كنت كثيراً أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت: يا أبَه، من أبو الهيثم؟ قال: ما تعرفه؟ قلت: لا. قال: أبو الهيثمِ الحداد؛ اليوم الذي خرجت فيه للجلد بالسياط، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا. قال: أنا أبو الهيثم العيار، اللص الطرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألفَ سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمٰن لأجل الدين»[(٣)].

---

(١) تاريخ بغداد (١٥/ ٤٤٤).
(٢) المرجع السابق (٢/ ٩٠).
(٣) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٥٤١).

كما يتأكد الدعاء والاستغفار لمن وقع تقصير في حقهم من أقاربَ وجيران، وأهلٍ وإخوان؛ فذلك كفارة لذلك التقصير، وقد أشار لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «إذا وجد العبد تقصيراً في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان، فعليه بالدعاء لهم والاستغفار»[(١)].

وإن من علائم الأخوَّة الصادقة، دعاء المسلم لإخوانه؛ ومما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه في ذلك قوله: «إني لأدعو لثلاثين من إخواني وأنا ساجد؛ أسمِّيهم بأسمائهم وأسماء آبائهم»[(٢)].

وإن من زكاء طالب العلم أن يدعو لمن كان له نفعٌ للإسلام والمسلمين، حتى ولو كان معاصراً له، حتى ولو كان أصغر منه، ومن أعجب ما ورد في ذلك ما جاء عن الإمام الكبير يحيى بن سعيد القطان أنه قال: «إني لأدعو الله عز وجل للشافعي في كل صلاة، أو في كل يوم؛ يعني: لما فتح الله عز وجل عليه من العلم، ووفقه للسداد فيه»[(٣)].

ووجه العجب في هذا أن الشافعي أصغر من يحيى القطان بـ ٣٠ عاماً، وقد مات القطان، وعمر الشافعي ٤٨

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٩٨).
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٣٢٦)، وفي الشعب (٨٦٤٢)، وفي إسناده انقطاع.
(٣) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٧/ ٢٠٢).

عاماً، فالشافعي في سِنِّ طلابه وأولاده؛ ومع ذلك يدعو له؛ وليس دعاءً مألوفاً معتاداً؛ بل يدعو له في صلاته، وليست صلاةً واحدة؛ بل في كل صلاة؛ وسبب الدعاء: هو ما فتح الله عليه من العلم!

إنه سخاء النفوس الكبير!

وإن هناك نوعاً من الدعاء يتأكد بذله للمسلمين، وهو الاستغفار لعموم المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات(١) تأسِّياً بالنبي ﷺ الذي أمره الله ﷻ بذلك، فقال له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

وقد أخرج عبد الرزاق(٢) عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أستغفر للمؤمنين والمؤمنات؟ قال: «نعم، قد أمر النبي ﷺ بذلك؛ فإن ذلك الواجب على الناس، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾».

وفي نصٍّ نفيس لابن القيم في ذلك يقول: «والجميعُ مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرةِ الله وعفوِه ورحمتِه، فكما يُحبُّ ـ أي: المسلم ـ أن يَستغفرَ له أخوه المسلمُ، كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفرَ لأخيه المسلم،

(١) ورد في ذلك حديث: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»، عن عدد من الصحابة، ولا يصح عن أحد منهم.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٣١٢٢).

فيصير هِجِّيراه[١]: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات، وقد كان بعضُ السلف يستحبُّ لكلِّ أحدٍ أن يُداوم على هذا الدعاء... فيجعل له منه وِرداً لا يُخلُّ به.

وسمعتُ شيخَنا يذكرُه، وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه، وربَّما كان مِن جملة أوراده التي لا يُخلُّ بها، وسمعتُه يقول: إنَّ جعلَه بين السجدتين جائزٌ، فإذا شهدَ العبدُ أنَّ إخوانه مصابون بمثل ما أُصيب به، محتاجون إلى ما هو محتاجٌ إليه لَم يمتنع من مساعدتهم إلَّا لفرطِ جهله بمغفرة الله وفضلِه، وحقيقٌ بهذا أن لا يُساعَد؛ فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل»[٢]. اهـ كلامه.

ربِّ اغفر لنا ولوالدينا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) أي: عادته وشأنه.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٨).